ضَجِيجُ تَكَّاتِ السَّاعَةِ

تمر الأيام عليّ كدهور وأنا في تلك الحجرة وحيدًا، حتى و إن كان هناك من الأهل من يتناوبون لزيارتي.. زيارة أشبه بالروتين اليومي، وأسئلة هي نفس الأسئلة بملل شديد.. كيف حالك؟، ما الأخبار؟، هل تأخذ العلاج بانتظام؟، هل زرت الطبيب قريبًا؟

ونفس الإجابة تخرج مني عن طريق اللسان فقط، دون أي شعور ولا اكتراث، فأقول: أنا بخير.

رغم أني علي سريري منذ سنتين، كأن اليوم من أيام السنة هو سنة أخرى، ورغم الألم والمرض الذي قد استشرى دون أية رحمة، أقول دائمًا "أنا بخير" لكل سائل لم يستطع أن يفعل شيئا إلا أن يسألني عن حالي، مُظهرًا الود أو يدعوَ لي بدعوات بعدما ترك لي باقة ورد على المنضدة، متأهبًا لعودته من حيث جاء..هذا يحدث منذ سنتين ولكم أن تتخيلوا أن يعيش أحد مشهدًا واحدًا في سنتين، فيتكرر وكأن الزمن قد توقف عندي كما تتوقف لقطة حية بآلة التصوير الفوتوغرافي..

رغم أن الساعة بجانبي تتكتك لتحصي الثواني والدقائق والساعات.. رغم أن تكاتها تحدث ضجيجًا في رأسي، وصار قلبي لا علاقة له بتكات تلك الساعة مطلقًا.. كنت في أول موسم الشتاء.. وطلبت من أحد أفراد عائلتي أن يخرج الساعة من الحجرة، لأن الوقت عندي لا فائدة منه ولا قيمة

..الوقت لمن عنده حركة، لأن الحركة كما تعلمت قديمًا؛ هي التي تولد الزمن، ولولاها لم يكن

هناك زمن.. وبتطبيق ذلك على نفسي وأنا بلا حركة.. فيكون الزمن عندي متوقفًا لا وجود له.. فالنهار والليل عندي سواء.. ولما أخرجوا الساعة من حجرتي؛ شعرت بالراحة شيئًا قليلًا، لأنه ليس هناك شيء يذكرني بأن هناك زمن.. وارتحت من ضجيج تكات الساعة.. لأنتبه إلى تكتكة المطر على زجاج الشباك، والذي يشبه تكات الساعة مع الفارق حتى تكتكات مناقير العصافير

علي الشباك تشبهها.. لكنها أيضا تختلف.. والاختلاف كان يتمثل عندي في أن الساعة تذكرني بالزمن الذي لا فائدة منه عند من لا حركة له.. بينما تكتكات المطر ومناقير العصافير؛ تذكرني بالحياة.. فيتهلل وجهي فرحًا بأن هناك حياة في الخارج.. أبتسم حين أعود بذاكرتي للماضي، وأتذكر مشاهد الحياة وأستعيض ثبات حركتي منذ أن أصابني الشلل مع قرحة المعدة بحركة ذاكرتي.. أتحرك مع المواقف وأتخيلها حين أذكرها وأغمض عينيَّ فأمشي تحت المطر، متخيلًا تلك السيارة الآتية من بعيد يقودها أهوج بسرعة، تجعل بركة الماء تستهدفني لتغرقني بالماء والوحل.. وأتخيل أنني كنت علي موعدٍ مع حبيبتي في إحدى الكافيهات الفاخرة الدافئة ليلًا.. وأننا سنجلس خلف الشباك الزجاجي في الدفء، نتابع المطر في الخارج ونحن نحتسي الشاي أو القهوة معا ونتبادل الكلمات الرومانسية الدافئة والنظرات الباعثة على الحياة الحقيقية.. ثم أنا الآن متضجر.. غاضب مما فعله السائق الأحمق بسيارته، وحتمًا سوف أعود لأغير ملابسي ولم يعد لدي الوقت..فأهرول بسرعة عائدًا إلي البيت

كي أستطيع موافاتها في الموعد دون تأخير فأغير ملابسي، ثم أركض على حافة الطريق متجهًا إلي الكافيه.. لكني أنتبه فجأة عند سماع صوت أحدهم بالخارج، وأنظر إلي الجدران من حولي فأعرف أني مازلت في سجني المؤبد.. فتسح عيني بالبكاء كما يسح السحاب في الخارج بكاءه أيضًا.. ثم أتوارى حين يدخل أحدهم الحجرة علي ليسألني تلك الأسئلة.. كيف حالك؟.. ها أنت اليوم وجهك نضر و جيد عن أمس.. وهو بالطبع يقصد شيئًا غير الحقيقة ليواسيني.. ولا يعلم هؤلاء أن لمجرد تلك الأسئلة أشعر بالإزعاج..

بالليل ينزل ستار من الظلام على الحياة ليغطي كثيرًا من الموجودات، وتختفي الأسرار خلف الأبواب الموصدة وكل باب خلفه حكاية.. أظل ليلًا طويلا أفكر في الزمن الهالك والعمر النافق، وما زلت أحلل تكات الساعة التي لا يزال صوتها يصلني من الخارج من شدة الهجود والهمود.. فأتساءل عن تلك الساعة المستبدة كأنها هي سبب انتهاء العمر!

فكل تكة بثانية مع كل دقة قلب؛ تشكل الحركة في القلب والزمن عند عقارب الساعة حياة ووجود... وأن الموت اذا أتاني وهجم علي لا شك سأنتقل إلى زمن آخر غير الزمن.. يكون أبديًا بلا ساعة ولا تكات مزعجة لأن الحياة بلا نهاية.. ثم أتخيل تلك الساعة وهي تلتهم أعمار الناس وكأنها وحش قاتل، وسفاح خطير موجود بكل بيت دون أن يشعر به الناس.. أريد أن أخرج لهم وأصيح بأعلى صوتي "حطموا تلك الساعات" فهي ما تلتهم العمر التهامًا وتذكركم بأن لحياتكم نهاية وهذا مزعج جدًا في حد ذاته..

كل فترة يصطحبني الأهل معهم إلي الخارج لأرى الحياة وأنعم

بالتغيير.. وهذا بالنسبة لي كان أمرًا رائعًا.. وأظل أضحك معهم طوال النهار في المتنزهات والأماكن العامة، وأنظر من نافذة السيارة لأشاهد الحياة والأطفال والباعة والسيارات لأشعر بالحياة وبأني موجود.. لكن أسوأ ليلة تمر علي.. هي الليلة التي تلي هذا اليوم، فأظل في سريري أشعر بالألم النفسي لما يجول بخاطري أنني لست على قيد الحياة.. رفاهية النهار تنقلب بؤسًا بالليل، ومع التكرار؛ رحت أكره يوم الفسحة لكرهي للألم الذي ينتابني في نفس الليلة حين أعود..

فأظل قلقًا مضطربًا من ضجيج تكات الساعة

كُتبت في/ 18 سبتمبر2018 /

بقلم / محمد اسماعيل